كلية الآداب واللغات

قسم الفنون

السنة أولى جذع مشترك فنون/ السداسي الأول

مقياس: السينما الصامتة

المحاضرة رقم 05 بعنوان:

" البدايات الكلاسيكية للسينما الأمريكية"

يضع العديد من دارسي السينما مصطلح الفترة الانتقالية على السنوات الممتدة ما بعد 1903 إلى غاية ظهور الأفلام الروائية الطويلة. وتميز هذه المرحلة من حيث الشكل بالتجريب المستمر في طرائق الحكي، وبالوظائف المتغيرة للأدوات الأسلوبية التي وُظفت لخدمة السرد السينمائي. ومن بين التجارب الأولى التي أسست للإطارين الفني والتقني لبدايات السينما الأمريكية تجربة المخرج 'إدوين بورتر' وتجربة 'دافيد وورك غريفث'.

1. إدوين بورتروبدايات المونتاج السينمائي:

سنة 1903 أخرج "إدوين بورتر" عددا من الأفلام لصالح شركة إديسون، كان أبرزها "سرقة القطار السريع "و"حياة رجل إطفاء أمريكي"، وهما الفيلمان اللذان أحدثا تحوّلا نوعيا في الصناعة السينمائية الأمريكية. تُعد سنة 1903 أيضا محطة ميلاد الفيلم المتوسط والطويل، بعد أن أدخل بورتر مبدأ القص

واللصق الذي أتاح إطالة زمن العرض، مؤسّسا بذلك لبدايات فن وعلم المونتاج.

لم يكن إدوين بورتر مخترعا للفيلم القصصي الذي ابتكره ميليس، ولا للتركيب المونتاجي الذي سبقه إليه الإنجليز، لكنه كان أول من وظّف هاتين التقنيتين بصورة كاملة. ففي فيلمه "سرقة القطار السريع " أضفى على السينما أجواء جديدة من خلال ظهور نمط فيلم رعاة البقر .كما استخدم الخدع السينمائية بحرفية، مثل الحاجبle cache، الذي أدى وظيفة الشفافات والبانوراما في إبراز عناصر ذات قيمة درامية، مثل مشاهد الخيول التي يمتطيها اللصوص أثناء فرارهم.

وقد أسس بورتر عبر هذا الفيلم لأول حضورٍ فعلي لفنّ المونتاج، من خلال ما عُرف لاحقا بـ 'المونتاج المتوازي'، وذلك عبر إظهار خطين سرديين يحدثان في الزمن نفسه، ما أحدث نقلة نوعية في بنية السرد البصري، وانتقالا من التتابع الخطي التقليدي إلى بناء قصصي أكثر دينامية.

ومن الابتكارات البصرية التي رسّخ بها بورتر حضوره تصوير 'لقطة كبيرة' لأحد رعاة البقر وهو يوجّه مسدسه نحو الجمهور، وهي لقطة أثارت الفزع لدى المشاهدين آنذاك. ورغم ذلك بقي الأسلوب المسرحي واضحا في أفلامه من خلال الكاميرا الثابتة ذات الزاوية الواحدة، وهو الأسلوب الذي سيعود إليه تماما في فيلم "كوخ العم توم "دون استخدام للقطات كبيرة أو للمونتاج المتوازي، وكأن ما أنجزه في فيلم "سرقة القطار الكبرى" حدث مصادفة.

لقد شكّل فيلم "حياة رجل إطفاء أمريكي" سنة 1903 مرحلة حاسمة، إذ اعتمد بورتر على الربط بين لقطات حقيقية لمشاهد الحرائق ولقطات تمثيلية من داخل الأستوديو، لخلق وحدة حدث متصلة. وظهر لأول مرة 'مونتاج التناوب' بين رجل الإطفاء والمرأة المحاصرة وسط ألسنة اللهب، مما خلق إحساسا قويا بالتزامن والاستمرارية، وهو ما لم يكن متاحا في أسلوب ميليس القائم على التتابع القطعي.

كما مهد هذا الأسلوب لمرحلة يقوم فيها المخرج بالقطع عند لحظة درامية محددة لتأكيد بعد بصري معيّن، مثل لقطة جرس الإنذار وهو يدق.

وفي الفيلم 'سرقة القطار السريع'، قطع بورتر التسلسل الزمني بتقديم لقطة خارج السياق تُظهر إنقاذ عامل التلغراف، ثم عرض خطا سرديا آخر لفرقة المطاردة. وقد عُدّ هذا الأسلوب نموذجا مبكرا للمونتاج المتوازي، ومؤشرا على بدايات الثورة في التعبير السينمائي. كما أسس الفيلم لنمط الويسترن في السينما الأمريكية.

لقد كان بورتر رائدا في تحديد عناصر السرد السينمائي مثل 'المونتاج الخطي'، والعناوين بين المشاهد، إضافة إلى توظيف اللقطات القريبة التي استخدمها في أفلام مثل 'موظف بيع الأحذية السعيد' و'كوخ العم توم'.

2. دافيد وورك غريفث والتراكيب الملحمية في السينما الروائية:

يمثل فيلم 'مولد أمة' سنة 1915، نقطة تحول كبرى في تاريخ السينما، حيث حرّر غريفث الفن السابع من البنية المسرحية، معلنا السينما فنا قائما بذاته. فقد انطلق من تقنيات السرد في القرن التاسع عشر ليطور أسلوبا جديدا يقوم على تفتيت المشهد إلى لقطات متعددة يعاد تركيبها دراميا.

كان اكتشافه الأبرز هو أن الكاميرا ليست مجرد شاهد بل عنصر مشارك في الحكي، وأن التقطيع وتغيير زوايا الالتقاط يمكنان من التحكم في التركيز الدرامي وإيقاع السرد. وبذلك تمكن من ربط المشاهد وفق منطق سردي ينسجم مع تطور الحدث والشخصيات.

استطاع فيلم 'مولد أمة' الذي تجاوز ثمانين دقيقة، أن يقدم بناء سرديا متماسكا ذا رؤية تاريخية، موظفا المونتاج الإيقاعي، والميزانسين، والتقطيع المتبادل. وقد شكّل عرضه في المسارح الكبرى خطوة في انتقال السينما إلى الأفلام الجادة ذات الإنتاج الضخم.

كما اكتشف غريفث أهمية الضوء والمؤثرات الضوئية، وظفهما لخلق أجواء تعمّق البعد العاطفي للمشهد، وهو ما مهد لتطور المدرسة الكلاسيكية في صناعة الأفلام.

كما عمل في أفلامه للشركة "بيوغراف" (1907–1913) على تطوير الاستمرارية والتطابق بين اللقطات لضمان سلاسة الانتقال، بحيث يعزز كل قطع الدراما العامة للمشهد. وبلغ هذا التوجّه ذروته في فيلمي

'مولد أمة' (1915) و'التعصب' (1916) اللذين استغلا كامل إمكانات السينما آنذاك.

وقد واكب أيضا، تطور المؤسسات السينمائية الكبرى مثل فيتاغراف، بيوغراف، يونيفرسال، وفوكس، وأسهمت هذه البيئة في ترسيخ مقارباته الملحمية في السرد.

وعليه، تقدم أفكار المخرجين 'إدوين بورتر' و'دافيد غريفث' أساسين متكاملين لفهم بدايات اللغة السينمائية:

- إدوين بورتر :التأسيس للمونتاج، وللتقطيع الموازي، وللانتقال من التتابع الزمني إلى السرد المركب.
- دافييد غريفث :تحرير الكاميرا، تقطيع المشهد، خلق الاستمرارية، وتطوير السرد الروائي الملحمي.

المكتبة البيبليوغرافية:

*باري كيث جرانت، موسوعة السينما، تر : أحمد يوسف، ج 1 ، ج 2 ، ج 3.

*ديفيد روبنسون: تاريخ السينما العالمية 1895 / 1980 ، ترجمة: إبراهيم قنديل.

* مارلين فيب، أفلام مشاهدة بدقة -مدخل إلى فن تقنية السرد السينمائي-، تر :محمد هامش عبد السلام.